أسماء
بنت
أبي بكر

أبو بكر زكري

سلسلة إسلامية للأطفال

obeikandl.com

مكتبة الأطفال الإسلامية

. . . على هدى من الله وبتوفيقه ، يشرفنا أن نسهم فى المنهج التربوى العلمى ، لوزارة التربية والتعليم ، الذى يستهدف تكوين جيل جديد من شبابنا العربى ، على دعائم الأخلاق والإيمان ، والصحة الوجدانية ، والقوى النفسية .

نسهم بهذه المكتبة الإسلامية التى تتدرج مع الطفل وتمشى معه خطواته الأولى الصاعدة حتى بواكير شبابه ، ومطالع رجولته .

وتاريخنا الإسلامى المضيء المليء بالمثاليات الفاضلة الملهمة هو المنجم الكبير الذى يجب أن نفتح أبوابه ليرتاده شبابنا الناشيء فيتزود منه بالأخلاق والإيمان والقوة .

ولهذا اعتزمنا أن نقدم هذا التاريخ بجلاله وسموه ممثلا فى حياة أبطاله وصانعيه ، من خلفاء ، وقواد ، وعلماء ، أضاءوا عالمهم ودنياهم ، ولا يزال نورهم يسعى بين يدى تاريخهم يحمل الخير والإيمان والهدى للناس كافة .

والله نسأل أن يوفقنا ، وأن يسدد خطانا ، وأن يودع الخير والهدى تلك الصور التى نستهدف بها رضاه . وحسبنا هذا الرضا ؟

د. عبد الحليم محمود　　ط. عبد الباقى سرور

... وقصد أبو جهل بن هشام بيت أبي بكر الصديق .. ومعه جماعة من قريش ... وأخذ يدق على الباب دقات عنيفة متوالية ، وأسرعت أسماء بنت أبي بكر من داخل المنزل وهي تقول :

— مهلاً .. مهلاً ! ! من بالباب ؟

ووجدت أبا جهل وعيناه تقدحان بالشرر وجسمه يهتز من الغضب وقال لها في غلظة :

أين أبوك ؟

— والله لا أدري أين يكون الساعة

وسكت لسانه عن الرد في الوقت الذي ارتفعت فيه يده الغليظة القوية فلطمت خد الصغيرة لطمة قاسية انتزعت قرطها من أذنها .

وغادر المنزل وقد ازداد غضبه ، ولحق بجماعة من قريش كانت تبحث عن محمد وصاحبه أبي بكر اللذين تركا مكة منذ يومين مهاجرين إلى حيث لا يعرف أحد من قريش ... ثم

تتابعت الدقاتُ من جديدٍ على البابِ ، ودقَّ قلبُ الصغيرةِ دقاً متلاحقاً واضطربتْ لا خشيةَ أن يُصيبها مكروهٌ أو يَلْحقها أذىً من الكفَّار الثائرين ولكنْ خشيةَ أن يَصُكَّ سمعَها نبأٌ يحمله شخصٌ قادمٌ مِن عِندِ أبيها وصاحبِه . ولم يكنْ الطارقُ هذه المرَّةَ إلا جدُّها أبو قُحَافةَ . . ، وكان شيخاً ضريراً فيه بقيةٌ من قوَّة ، لم يُؤْمن بِما آمنَ بِه ابنُه أبو بكرٍ مِن توحيدِ الإلٰه ، والاعترافِ برسالةِ محمدٍ . .

وبَعد أَن استقرَّ به المجلسُ واطمأنَّ قال وفى صوتِه نبرةُ حُزن :

— يا أَسْماءُ إن أَباكِ قد ارتكبَ جريمةً لا تُغْتَفرُ فى حقِّك وحقِّنا ، فالذى يهاجِرُ ويتركُ أبناءَه من غيرِ رِعايةٍ وعنايةٍ ، يرتكبُ بذلكَ أَكبرَ الأخطاءِ ، فبأى حقٍ يترُكُ أبوكِ ابنَه عبد الله وأختَك عائشةَ وأُمَّها وأنتِ من غيرِ مالٍ ؟ وفى رعايةِ

مَن يترُكُكما وأنا شيخٌ ضريرٌ لاقُدرةَ لى على رِعايةِ نفسى فضلاً عن رعايتِكم ؟

— فى رعاية الله تركَنا وهو خيرُ الحافظين .

— أوَ تُؤْمنينَ باللهِ ربِّ محمدٍ ؟

— ولماذا لا أُومن ، وهو ربِّى ورب كُلِّ شىءٍ ؟ !

— إن كانَ قد حرَمَكُم من عَطفه فأخشى أن يكونَ قد حرمَكُمْ من مَالِه أيضاً ! !

فهلْ حَمَل عند هُروبه مع صاحِبه مَا كانَ يدّخرُه ويتاجِرُ به من آلافِ الدراهمِ التى أنتم أَولى بها ؟

— كَلاَّ يا أبتِ ! ! فقد تركَ لنَا خيراً كثيراً .

— إن كان قد تَركَ دعاءً لكِ أو رضاً عنكِ وعن أُختكِ فما أَتفهَها من تَرِكةٍ وما أشقَاكُمْ بما ورثتُمْ عنه ! ! طمئنونى على ثروتهِ أينَ مكانُها ؟ وهل أخبركُمْ عنها قبيل رحيله ؟

— لم نَشغَل أنفُسَنا بأمرِها وإنما شُغلنَا بأمرِ صاحِبها ، وقد

سمعتُ مِن أخى عبدِ الله أنها موضوعةٌ فى رُكْنٍ مِن حجرةٍ أخرى بهذا المنزلِ ، فانظرنى أرجعْ إليكَ بالخبرِ اليقينِ .

ومضت فترةٌ رجعتْ بعدَها أسماءُ متهللةَ الوجهِ تسرعُ فى سيرِها تجاهَ جدِّها أبى قحافةَ وتجذبهُ مِن يدِهِ وفى صوتِها رنةُ فرحٍ طرقتْ أُذنَه:

— أَسْرِعْ لِنرَى معاً ما تركه لنا أَبونا مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ .

وَقَادَتْهُ إِلَى رُكْنٍ فى حجرةٍ جانبيةٍ ثم قالَتْ له :

— ضَعْ يَدَكَ على ما فى هذه القدورِ مِنْ مَالٍ وَجَوْهر .

ولما مدَّ الأعمى يده يتحسَّسُ بها ثروةَ وَلَدِهِ قَالَ

- إن يدى لا تلمس إلا أثواباً خشنةً ! !

— تحتها يَقْبعُ المالُ ويرقد الجوهرُ

— إن كان تَركَ لكم كلَّ ذلكَ فقد أحسنَ إليكُم وضمِن لكم حقكمُ وفيما تركَ كفايةٌ لكم . وبعد أن انطلق الشيخُ عائداً إلى بيته قالتْ لها أُختُها الصغرى عائشةُ :

— يا أسماء إن أبي قد حمل معه كلَّ ما يملك فماذا في هذه القدور ؟

— فيها حصى وحجارة جمعتها ووضعتها مسرعةً في هذه الآنية القديمة ثم أخفيتها تحت ثياب قديمة لي وغطيتها بأغطية ثقيلة ، لأوهم الشيخ الضرير أنها أموال . حتى أزيل غضبه فيسكت لسانه ويسكن قلبه .

— الحمد لله الذي كفانا شر هؤلاء الذين أفزعتهم هذه الهجرة التي لا يعلم أحد غيرنا بأمرها ، إن كل لحظة تمر يزداد شوقي إليهما وإلى معرفة أخبارهما .

— انتظري يا عائشة عودة أخيك عبد الله فلعل وراءه الكثير من الأخبار . . وقبل المساء وانتصف . . ولم يأت أخوها . . ومع الخيوط الأولى لفجر تلك الليلة أقبل عبد الله باسم الثغر رضي النفس مشرق الأسارير برغم ما بذل من مجهود . وابتدرته أسماء قائلة :

— خيراً ، ماذا عندك من أنباءِ المهاجرين الكريمين ؟

— قضيتُ النهارَ مُتنقلاً بينَ أرجاءِ مكةَ ونواحيها أتسمع ما يقولُه مشركو قريشٍ وما يُعقّبون به على تلكَ الهجرةِ التي حيّرتهم وهزّتهم وأثارت غضبَهم وحفيظتَهم ، وقد علمتُ منهم أنهم جعلوا مائةَ ناقةٍ جائزةً لمن يأتيهم بمحمدٍ حيًّا أو ميتاً .

وتحت ستارِ ظلامِ الليلِ ذهبتُ إلى الغار .. ونقلتُ إلى الرجلين حديثَ أهلِ مكّةَ عنهما ... وعلى بابِ الغارِ وجدتُ خادمنا عامرَ بنَ فُهيرةَ يُريحُ غنمنا هناك بعد أن رعت مع غنمِه في وديان مكّةَ صباحاً وقد قدّم لوالدي ولرسولِ الله من ألبانِها ما فيه كفايتُهما ... وقد تركتُه هناكَ وسبقتُه في العودةِ إلى هنا حتى يأتي ورائي فتمحوَ أرجلُ غنمه آثارَ قدميّ من على الرمال

وكيف أمضى الرسولُ وأبي ليلتَهما ؟ وهل لقيا مشقّةً من هذا الطريق الذي يسلكانه لأولِ مرّة ؟

— كان الطريقُ وعراً تكسوهُ الصخورُ الحادّةُ التي أسالت

الدماءَ من قدمَىْ محمدٍ ... ولما وصلا إلى الغارِ نامَ الرسولُ نوماً عميقاً مسنداً رأسَهُ على فخذ أَبى ... ومضَتْ مدةٌ أحسَّ أَبى خلالَها بألمٍ شديدٍ فى قدمِه ...

ونظر فرأى حيَّةً تتلوى بين الرمالِ وعلِم أنها لدغتْه ... ولكنه تحمَّلَ الألمَ فى صَبرٍ ولم يحرِّك ساكناً خوفاً من أن يستيقظ رسولُ اللهِ ...

وسرى الألمُ قوياً سريعاً فى جسدِه ... وتورّمت قدمُه وتساقَطَتْ دموعٌ غزيرةٌ حارّةٌ من عينيه سقطتْ قطراتٌ منها على خدِّ محمدٍ فأيقظَتْه مِن نومه واستفسر من صديقِه عن سببِ ألمِه فقال :

— لدغتنى حيّةٌ !!

ومسح الرسولُ بيدِه الشريفةِ على الجُرحِ المسموم فزالَ الألمُ وذهبَ الورمُ

☆ ☆ ☆

وأرسلت قريشٌ رجالها يستطلعون ويبحثون عن الرسولِ في كل مكانٍ ووصلت جماعةٌ منهم ، وعلى رأسهم أميّة بن خلفٍ ووقفوا أمامَ الغارِ ومرّ بهم راعٍ يرعى الغنم فسألوه :

— ألم تر محمداً وصاحبه ؟

— قد يكونان بالغار وإن كنتُ لم أر أحداً دخله

وسمعَ أبو بكرٍ جوابَ الراعي فأمسكَ أنفاسَه لا خوفاً على حياته ، بل على حياةِ رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم ، وقد صرّحَ بذلك لرسولِ الله عندما قالَ له :

— لا أخافُ هلاكَ نفسي ؛ لأنّ في موتي موتُ رجلٍ واحدٍ ، أمّا موتُكَ فهو موتُ كافةِ المؤمنين وقضاءٌ على الدعوةِ الإسلاميةِ الجديدةِ .

وشعر أبو بكرٍ باقترابِ المشركين فقال هامساً :

— لو نظر أحدُهم تحتَ قدميه لأبصرنا

فيهمسُ محمدٌ في أذنه : لا تحزن إنّ اللهَ معنا .

وهمّ المشركونَ بدخولِ الغار لولا أن رأوا غشاءً رقيقاً واهياً من نسيجِ العنكبوتِ ... فنظر أميةُ إلى أتباعِه قائلاً :

— ما أغباكُم إن أمامَكم خيُوطاً نسجَها العنكبوتُ من قبل أن يُولدَ محمدٌ ولو دخلَ من هنا لتمزّقَ النسيجُ ولرأينا آثارَ قدميه .

وآمَن الجميعُ بصحة كلامِ أُميّةَ ما عدا أبا جهلٍ الذى تشكّك فى الأمرِ وقال :

— واللهِ إنى لأظُنه قريباً يرانا ولكنْ لا أدرى أيّةَ قوّةٍ حجبت عنا رؤيتَه .

وحلّ اليومُ الثالثُ وهدأتْ ثائرةُ القرشيين بعضَ الشىء ؛ إذ ضعُف أملهُم فى العثور على محمدٍ وصديقِه ... ونشرَ الليلُ رداءَه الأسودَ على الكون ... ولفّ مكّةَ بظلامٍ قاتمٍ ... وتسلّل شبحانِ مِن بيت أبى بكر ؛ أحدُهما ظلّ سائراً حتى وصلَ إلى بيتِ ابن أُريقطْ ، وكان مشركا خَبيراً بالصحراء وطرقِها ومسالِكها . واستقبل ابنُ أُريقط ذلك الزائرَ وعرفَ فيه عبدَ الله

ابنَ أبي بكر فقال له :

— ماذا جاء بك الساعةَ ؟

— جئتُك لتتأهّبَ للرحيلِ الآن ومعك الجملانِ اللذانِ عهدا إليكَ بهما بأبي قبل رحيله .

— وإلى أين ؟

— إلى غارِ ثَوْر حيثُ تبدأُ معه الرحلةَ إلى يثربَ .

وأذعَن الرجلُ للأمرِ وتأهّبَ للرحيل . . ولم يكنْ أبو بكر يخشى منه ، فصِلَتُه به قويةٌ وعَلاقَتُه معه متينةٌ ، والعَطاءُ الذي ينتظره من أبي بكر كثيرٌ كبيرٌ .

أما الشبح الثاني الذي تَستَّر بظلامِ الليلِ فقد أسرعَ في سيرِه حاملاً طعاماً في جِراب وماءً في قِربةٍ وأخذ يقطعُ الطريقَ المظلمَ المخيفَ بخطواتٍ واسعةٍ وأنفاسٍ لاهثةٍ ونفْسٍ خائفةٍ من أن يراها إنسان ، ولم تكن هذه إلا أسماءَ التي وصلت إلى الغار ولم يرها أحدٌ ومعها ما تحمله من طعامٍ وشرابٍ اشتركتْ في

إعدادِه عائشةُ أختُها وأُمُّها ... ووصلَ بعدَها ابنُ أُريقطٍ ومعه الراحلتانِ .

واستعد الركْبُ للرحيلِ من الغارِ إلى يثربَ ... وحانت ساعةُ وداعِ أسماءَ لأبيها ولمحمد ... وبدت متجلّدةً متماسكةً ... ثم تقدّمتْ لِتُعلّق الزادَ الذى أتتْ به على أحدِ الجملين ... ولمّا لم تجدْ رِباطاً تربطُه به مدّتْ يدَها إلى نِطاقِها « حِزامِها » فشقّتْه نِصفين : نِصفٌ ربطت به الزادَ والنصفُ الآخرُ لفّتْ به وَسَطَها فسمّاها لذلك رسولُ الله « ذات النطاقين » وقال لها : « أنتِ ونِطاقاكِ فى الجنّة » .

ووقفت أسماءُ ومعها عبدُ الله يُشيّعانِ الركبَ المتّجهَ نحوَ يثربَ تحرسُه عنايةُ اللهِ وتحفُّه رعايتُه .

على مِثل هذا الوفاء والفِداء شبّتْ أسماءُ فى بيتِ أبى بكر ، وعلى التضحيةِ والكرمِ عوّدَها أبوها فنشأتْ فى ظِلاله نشأةً عاليةً كريمةً ؛ لذلك لا عجَبَ أن تحمّلتْ نصيبها من الجِهادِ عند

(فدائيـــة)

ظهورِ الإسلامِ ولم يكنْ سنُّها إذْ ذاكَ يتجاوزُ أربعَ عشرةَ سنةً .

☆ ☆ ☆

وظلت حياتُها كُلها جهادٌ وجلادٌ ومغالبةٌ وصراعٌ وعملٌ على نشرِ الدين ونصرِه وتأييده ، حتى بعد أن تزوجتْ الزُبيرَ ابنِ العوّامِ أحدَ المبشّرين بالجنّةِ وبطلٌ من أبطالِ المسلمينَ وصحابيٌّ من السابقين السبّاقين إلى الإسلام .

وهكذا حياةُ المجاهدين والمجاهداتِ لا تَذوقُ للراحةِ طَعماً ، ولا تعرفُ للاستقرار معنىً ولا تركَنُ إلى الهدوءِ والانزواءِ .

☆ ☆ ☆

واستقرَ المسلمون فى دارِ الهجرةِ الجديدةِ « يثربَ » التى سميت بعد ذلك باسم « المدينةِ المنوَّرة » ووجدوا فيها ما لم يجدوا فى مكّةَ من أمانٍ وقلوبٍ مخلصةٍ ونفوسٍ استجابت سريعاً لدعوة محمد فاعتنقت عقيدَته التى كان يدعو إليها

وتكتّلَ يهودُ المدينةِ معَ مُشركوها وأَجمعوا كَيْدَهم

ليحاربُوا الإسلامَ ووجدوا أنهم لن يستطيعوا المجاهرة بذلك العداءِ لما للمسلمين من قوّة بإيمانِهم وبأنصارِهم أهلِ المدينةِ ... فلجأُوا إلى سلاحِ الإشاعاتِ وإطلاقِ الأكاذيبِ والأراجيفِ ليوقِعُوا الشقاقَ والخلافَ بينَ أصحابِ محمدٍ ويُبعدوا عنهم الراغبينَ فى دُخولِ الإسلام

وهكذا شأنُ اليهودِ لا يجابهون المواقفَ ولا يلجأُون إلى الطرقِ الواضحةِ التى تدلُّ على الشجاعة والقوةِ بل يَعْمِدون إلى الأساليبِ الرخيصة مِن وراءِ الأستارِ .

والتقى مُسلمانِ فى إحدى طُرقِ المدينة وقال أولهما :

— لقد مَضَى علينا فى المدينةِ ما يقرُبُ مِن عام ، بَلْ ما يزيد عليه ولم يُولَدْ لأحدٍ منا نحن المسلمينَ أى مولود ! !

— وما حاجةُ المسلمينَ إلى النَّسْلِ والذريةِ ؟

— ليحملَ الخلَفُ رايةَ الدِّينِ ويتحملُوا تبعاتِ الدعوة ويُبَشِّرُوا بها ويَنشُرُوها فى العالم أجمع

— للدين ربٌّ ينشره ويحميه

— حقاً ، ولكن مما يُؤلمُ النفسَ أن ينتهزَ اليهودُ هـــذه الفُرْصةَ فيطلِقُوا شائعاتٍ مسمومةً ملأُوا بها نواحى المدينةِ وسائرَ بلادِ الحجاز حينما زعموا أنهم سحروا المسلمينَ المهاجرين فلَنْ يُولَد لهم بَعدَ اليومِ وَليدٌ ولَنْ يَعرف لهم الوجودُ بعد الآن نَسْلٌ ولا ذُرِّيةً !

وتصل إلى آذانهم فى ذلك الوقتِ صيحاتُ فَرح واستبشارٍ وأصواتُ تَهليلٍ وتكبير ، ويُسرعُ المسلمانِ مع جُموع المسرعين إلى مَصْدَر الصوتِ . وتوقفوا جميعاً عنـــدَ بيتِ الصحابىِّ الجليلِ الزبير بن العَوَّام زوج أَسْمَاءَ بنتِ أبى بكر ... وبلغت أسماعهم صرخاتُ وليدٍ صغيرٍ تنبعثُ مِن داخِل الدارِ وتُعْلِنُ للناسِ افتراءَ اليهود على اللهِ . وفَرِحَ الرسولُ الكريمُ بهذا الوليدِ لأنه حفيدُ أبى بكر صديقه المخلص وتمنَّى أن يَرْفَعَ الله به شأْنَ الإسلام كما رُفع بجدِّهِ أبى بكر .

وكانت فرحةَ أبي بكر به بالغةً ؛ إذ كان أولَ مولودٍ يولد في دارِ الهجرةِ هو ابن بِنته أسماءَ وأَسْماه أبو بكر « عبدَ الله » .

* * *

وشَهِد عبدُ الله بنُ الزبير وفاةَ الرسول الكريم ، وعاصرَ عَصْرَ الخلفاءِ الراشدين ، وتابع الأحداثَ التي تتابعتْ في ذلك العصر إلى أن انتزعَ معاويةُ بنُ أبي سُفيانَ الخلافةَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طالب .

* * *

وبعد أن استتبَّ الأمرُ لمعاويةَ أرادَ أن يجعل المُلْكَ وراثياً في أُسرتهِ ، فجمع طائفةً من كِبارِ المسلمين وقال لهم :

— قد عَلِمْتم شدةَ حِرصي على عِزّ الإسلام وحبي لكمُ وعطفي عليكم ويزيد ابني أخوكم وابن عمكم ، وما أردتُ من ترشيحه للخلافةِ من بَعدي إلا أن يكونَ له الحكم في الظاهر وتكونوا أنتم في الحقيقةِ الذين تأمرون وتَنْهون . فبايعوه بالخلافة مِنْ

بعدى تخدموا دينكم وأنفسكم . ولم تؤثر فى الحاضرين خديعة معاوية هذه ، فسكتوا إلى أن قال عبد الله بن الزبير .

— لماذا لم تفعل كما فعل رسول الله : مات ولم يعهد بالحكم إلى أحدٍ من الناس . فدع أمر ولاية العهد ليختار الناس بعد موتك من يرونه أصلح لولاية أمورهم ورعاية شئونهم . وإن شئت فافعل كما فعل أبو بكر ترك أبناءه وأقرباءه وعهد بالإمارة إلى شخص كان أحق بها وأهلاً لها ، وهو عمر ابن الخطاب .

وإن أردت فاصنع كما صنع عمر بن الخطاب عين أسماء ستة أفراد من أكفاء قريش وجلة الصحابة ليختار المسلمون واحداً منهم من بعده وترك ولده وأهل بيته وفيهم الإدارى الحازم العالم والمسلم العادل العاقل الذى لو تولى خلافة المسلمين لكان المنصب جديراً به . فالحكم فى الإسلام ليس وراثياً ولكن الأمر شورى !

فقال معاوية : هل عندك غير هذا ؟

— لا ! !

والتفت معاوية إلى الحاضرين قائلا :

— وأنتم ماذا تقولون ؟

— نحن مع عبد الله بن الزبير في آرائه وكلامه

وظهرت علامات الغضب على وجه معاوية ورأى أن خطته ستنهار ، وأن المنصب سيفلت من بين يدى ولده يزيد بسبب موقف هؤلاء المعاندين المعارضين . فرأى وهو السياسى الداهية الذى قال لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت إن شدوا أرخيت وإن أرخوا شددت رأى أن يلجأ بعد ذلك إلى سلاح التهديد ومنطق القوة فأمر بأن يقف وراء كل مسلم من هؤلاء الحاضرين جندى يحمل سيفاً وقال لهم :

— سأحضر عامة المسلمين وجمهور الشعب وسأقرأ عليهم

قرار ولاية العهد ليزيد ابنى فمن يعارض منكم أو يتململ فى مجلسه فسيهوى السيف على رقبته .

وبذلك تمّ الأمر ليزيد ابنه . أما عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير فكان يُجاهر دائماً بأن معاويةَ حاكمٌ غير شرعى للبلادِ . وضمهما مجلسٌ فافتخرَ فيه عبدُ الله على مُعاويةَ الذى قال له :

— ما أظلمكَ أنفتخر بينَ يدى أمير المؤمنين ؟

فوجّه عبدُ الله كلامه إلى الحاضرين وقال :

— أنا أهلٌ للفخر ، فأبى آمن برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونصرهُ ، أما أبوه أبو سفيان فقد خذلَ الرسولَ وحاربه ، وأمى أسماء بنت أبى بكر الصدّيق ، وأمه هندٌ التى أكلتْ كبدَ حمزة عمِّ الرسولِ عندما قتلَ يومَ غزوة أُحدٍ . وجدى أبو بكر خليفةُ رسول الله وناصرهُ ، وجدّه عتبةُ بن ربيعةَ رأسُ الكفر وعدو الإسلام ومقاتل المسلمين يومَ بدر .

وعمتى خديجة رضى الله عنها ذات الغنى والحسب . وعمتُه

أمّ جميلٍ حمّالةُ الحطب وزوجُ عمّى محمدٌ خيرُ رسولٍ ظهرَ على وَجْه الأرضِ وزوجُ عمّتِه الملعونُ فى الدنيا والآخرةِ أبو لهب الذى قالَ اللهُ فيه « سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » وخالتى عائشةُ أُمُّ المؤمنين وخالتُه أشقَى امرأةٍ عرفتْها الدنيا . وأنا عبد الله وهو مُعاويةُ .

وأَطْرق الحضورُ وخفضوا أنظارَهُم ... ولاذُوا بالصّمتِ .

وتولّى معاويةُ الردَّ فقال :

— كيف تَصِفُ نَفْسَك بكلّ هذهِ الصفاتِ وليسَ لكَ قديماً رياسةٌ ولا حديثاً سياسةٌ ، فنحنُ الرؤساءُ قديماً وحديثاً ولا يستطيعُ أحدٌ أن ينكرَ ذلك ، وإنّ هؤلاء الحضورَ يعلمونَ جميعاً أنّ الرسولَ محمداً الذى انتخبهُ اللهُ واختارَه مِن بَين خيرِ خَلْقه قَد اختارَه من أُسرتى لا مِن أُسرتِك ومِن سُلالةِ أبى لا مِن سُلالةِ أبيك . أبى الذى أنعم اللهُ عليه بالإيمانِ وعَصَمَهُ بالإسلامِ مِن عِبادةِ الأصنامِ فكانَ فى الجاهلية عظيمَ الشأنِ

وفى الإسلامِ مرفوعَ المكانةِ . ولَقد أعطاهُ رسولُ الله من التكريمِ يومَ فتحِ مكةَ مَا لمْ ينلْه أحدٌ من آبائِك ، فَقَد أرسَلَ الرسولُ منادياً يُنادِى فى هذا اليوم « أنَّ مَنْ دَخَل المسجدَ فهو آمنٌ ، ومَن دَخل دارَ أبِى سُفيانَ فهو آمنٌ » هذه الدارُ هى دارُ أبِى لا دارُ أبيك .

أمّا هندٌ أُمى فكانَتْ امرأةً مِن قريش فى الجاهلية عظيمةَ الخطر ، وفى الإسلام كريمةَ الخَبر . أما جدّى عُتبةُ الذى دَعا إلى المقاتلةِ والمبارزةِ فى غزوة بدرٍ فلَو خَرجتَ أنتَ وآباؤك ما قاتلكمُ ولا بارزكمُ ؛ لأنكم لستم أكفاءً ولا نُظراءَ لمقاتلته ومَن معه . وظلَّ جَدِّى وأخُوه وأبى يأنفُون مِن مقاتلةِ مَن هُم أقلُّ منهم مكانةً وأدنَى منزلةً وأضعفَ حسباً ونسباً حتّى خرجَ إليهم لمقاتلتهم مَن أسلم قبلَهُم مِن أهلِنا وأسرتِنا فالقاتل منّا والمقتولُ كذلك منّا . وأنتم بعيدونُ لم تنالوا شَرَفَ النصرِ أو شرفَ الاستشهادِ .

ولم يرضَ عبدُ الله بنُ الزبيرِ عن نظامِ الحكمِ الذى جعلَه معاوية وراثياً فى أبنائِه مِن بعدِه ، وحَنَقَ عليه وعلى كلِ من تولَّى الخلافةَ مِن نسلِه وذريتِه ... وشاركَه فى هذا الشعورِ أهلُ الحجاز الذين لم يَجدوا أحقَّ بالخلافةِ مِن عبدِ الله بنِ الزبير فجعلوهُ خليفةً عليهم ، وجعلوا « مكةَ » عاصمةَ الخلافةِ ومقرَّ الحكمِ لدولةِ الزُّبيريين .

* * *

واستمر عبدُ الله خليفةً فى مكةَ سبعَ سنواتٍ يُناهِضُ الخليفةَ الأمويَّ فى الشامِ ولم يَستطعِ الخليفةُ أن يهزِمَه أو يُخضعَه إلى أن تولَّى الخلافةَ فى الشامِ عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ فصمَّم على تأديبِ عبدِ الله وإخضاعِه ونزعِ الملكِ منه ، وأعدَّ له جيشاً كبيراً يقودُه رجلٌ قاسٍ جبَّارٌ هو الحجاجُ بنُ يُوسفَ الثقفى ...

وزحفَ الحجاجُ بجيشِه من الشامِ حتَّى وَصَلَ إلى مكةَ فطوَّقَها بجيوشِه وحاصَرَها واعتلَى جنودُه الجبالَ المحيطةَ بمكةَ

فعسكروا فوقها وأخذوا يرمون بالحجارة أهل مكة وجنود عبد الله المحصورين بداخلها ، وكانت الكعبة الشريفة من ضمن الأهداف التى رماها الجنود المغيرون بالحجارة ...

وأثر الحصار فى نفسية أهل مكة ، وفى الحالة الاقتصادية بها فانتشر القحط وقل القوت حتى اضطر عبد الله إلى ذبح فرسه وتوزيع لحمها على الجائعين ... وتفرق الناس والأنصار من حول عبد الله ولم يبق فى الميدان إلا هو وقلة قليلة من أنصاره على رأسهم عبد الله بن صفوان ، وعمارة بن حزم ، وعبد الله بن مطيع . وفر كثير من أهل مكة وكثير من جند عبد الله بن الزبير إلى الحجاج سعيا طالبين الأمان . ووجدها الحجاج فرصة مناسبة ليجبر ابن الزبير على التسليم وإنهاء القتال فأرسل إليه رسولا يقول له : « يابن ذات النطاقين اقبل الأمان وادخل فى طاعة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين » . ولكن هذه المصاعب والمتاعب المحيطة به لم تغير عزيمته ولم تضعف قوته .

لذلك لم يرضَ أن يُلقى سلاحه ويَقبَل مبدأَ التسليم . وقبلَ أن يخوض المعركةَ الفاصلةَ لبس ملابسه الحربيةَ ودخل على أُمِّه ليودِّعها الوَداع الأخيرَ ، وهى وإنْ كانتْ ضعيفةَ الجسدِ ، إذْ كانتْ سنُّها إذْ ذاكَ تزيدُ على المائة ، إلَّا أنها قويةُ الروحِ وإن فقدتْ البصرَ فإنها نافذةُ البصيرةِ .

ويتحدث التاريخُ عندئذٍ عن مَشْهدٍ خالدٍ من أروعِ المشاهدِ بَيْنَ أم مُلْهَمةٍ تغلَّبُ العقلَ على العاطفة وابنٍ بارٍ مؤمنٍ يلجأُ إلى قلبِ أُمه ليرضَى عنه قبل أَن يَرْحل الرحيلَ الذى لا عَودة بعدَه .

وفى كلماتٍ تَقْطُر حُبًّا وحُنُوًّا يقولُ لها

— يا أُمى ابتعدَ عنى الأهلُ وهَرَبَ منى الأصدقاءُ ، ولم يبقَ معى مِنَ الأعوانِ والشجعانِ إلا أفرادٌ قليلون يُعدُّونَ على أصابع اليدِ ، أما الباقى فضِعافٌ لا يستطيعون أن يَصْبِرُوا فى مَيْدان القتالِ أكثر من ساعةٍ . وأعدائى بنو أُميةَ يُغرونَنِى

ويريدونَ أن يُعطُوني كلَّ ما أُريدُ مِنْ متاعٍ ومال على شرط أن أترُكَ قتالهم واعتزلَ الخلافة وأتنازل عنها فما رأيك ؟

— إنْ كنتَ تعتقدُ أنكَ على حقٍ فسِرْ في طريقِ الحقِّ ولا تخَفْ مِن شيءٍ ؛ إنَّ الرجلَ الحرَّ لا يرضى الذلَّ ولا يقبل الهوانَ ، ووالله لموتٌ بالسَّيفِ في عزٍ خيرٌ من الحياةِ في ذُلٍّ ، والقتلُ في سبيلِ العزَّةِ والكرامةِ أحسنُ من حياةٍ كلها خضوعٌ ومهانةٌ إنَّ مَن يمت شهماً شهيداً تظلَ ذكراهُ من بعده حيَّةً كريمةً .

— أخاف يا أمي إن قتلى بنو أُميةَ أن يمثلوا بي ؛ فيقطّعوا أعضائي ويشوهوا جسدي أو يصلبوني ويجعلوا جثتي طعاماً للطيورِ والنسور

— يا بنيَّ إنَّ الشاةَ لا تتألمُ من السَّلخِ بعدَ ذبحِها فاستعنْ بالله وسِرْ في طريقك .

— هذا رأيي فوالله ما أحببتُ الدنيا ولا فضَّلتُ الحياةَ فيها على القتالِ في سبيلِ الله وما كنتُ متردداً ولا جبَاناً ولكني

(نصيحة)

أَردتُ أَن أَسمَعَ إِلى نصيحَتكِ ومشورَتك لتزيدنى قوةً على قوّةٍ وهدايةَ فوقَ هدايةٍ واعلمى يا أمى أنى سأُحاربُ حتى آخر قطرةٍ فى دمى وسأُقتَلُ فى هذا اليوم فلا يَشتد حزنُكِ علىَّ ، وسلمى للهِ الأمرَ ، وهو عنده ثوابُك وثوابى ، واللهُ يعلمُ أَنى ما قاتلت الأمويين فى سبيلِ أَن أُقيم لى مملكةً ولكن فى سبيلِه هُو ؛ فقد ظَلَموا وجَاروُا وأنا أكرهُ الظلمَ والظالمينَ ، وقد نقضُوا عهودَهُم وأنا لم أغدر فى عَهدٍ ولمْ أُخلف وعداً ، وليسَ عندى أفضلُ مِن طاعةِ مولاى وخالقى واللهُ يعلمُ أَنى لمْ أَقُلْ ذلك تباهياً وفخراً بنفسى ولكن تعزيةً لكِ عندما تعلمين بقتلى وتسلية بعد فَقْدى ، ولأجل أَنْ أَرْحَل وأنا ضامنٌ دُعاءَ الأمِ ورِضاءَ قلبها عَن ولدِها

— إِن سبقتَنى إِلى الموت ولقاءِ الله فقدْ قَدَّمْتُكَ ثواباً لى عندَ الله ، وإِن مدَّ الله فى أجلِكَ لِتتمَّ رسالتَك فسيزداد سُرورى بِك وبنصرِك على أعدائِك .

ورفعتْ وَجهها إِلى السماءِ داعيةً له قائلةً :

اللهمَّ إنى قد وضعتُ مصيرَه بينَ يديكَ وأسلمتُه إليكَ ورضيتُ فيه بقضائِك فاعطِنى فيه ثوابَ الصابرينَ الشاكرينَ .

وضَمتْهُ إلى صَدْرِهَا فأحسَّتْ درعاً حربيةً يلبَسُهَا تحت ثيابه فأبعدتْهُ عنها وهى تقول مُستنكرة :

— أتكرهُ الموتَ ؟!

— ولماذا ؟ واللهُ يعلمُ أننى ما أحببتُ الحياةَ ولا رَكَنْتُ إلى الدنيا .

— لأنك تتحصَّنُ بلُبْسِ هذهِ الدرعِ من الموتِ ، والمجاهِدُ ينزلُ إلى الميْدَانِ ولا يَعتمدُ بَعدَ اللهِ إلا على قوتهِ . فجاهِدْ كما جَاهَدَ أمثالُك وأنتَ فى ثيابك العادية ، وامْضِ كما يمضى الأسدُ من غير دِرعٍ ولا حلقاتٍ حديدية

فأجاب وهو يهمُّ بخلعها ...

— واللهِ ما لَبِستُها إلاَّ لاعتقادِى أَن لُبْسها يُطَمْئِنُك على وَلَدِك .

وخرجَ للقتالِ يَحُوطُه نفرٌ قليلٌ مِن أَخلص جُندِه وأعوانِه ... وظلَّ يقاتلُ معَهم حتى تكاثرتْ عليهم جماعةٌ من أعدائِهم ... ورأى البطلُ أصحابَه وهم يَسْقطون كأوراقِ الخريفِ واحداً بعدَ الآخَر ... ولم يبقَ فى الميدان إلا هو ... فاحتمَى بالكعبةِ الشريفةِ وأسنَد ظهرَهُ إليها ووجهَهُ إلى أعدائه وأخذَ يقاتل بمفرده ... وشاهَدَ جندُ الحجاج النصرَ يقتربُ منهم فزادتْ حماستُهم وتوالَى سقوطُ الحجارةِ على الكعبةِ ... وسقَطَ حجرٌ على رأسِ عبدِ الله فهَوَى جسدُه الذى أضناه القتالُ على الأرض مغشياً عليه ... وفى حركةٍ خاطفةٍ أسرعَ جُندىٌّ مِن جنودِ الحجاجِ فجزّ بسيفِه رأسَ عبدِ الله وحمله بين يديه وهو يقطرُ دماً وأسرعَ به إلى الحجاج .

ولم يجد الحجاج خيرَ هدية يُقدّمُها إلى الخليفةِ الأموى بالشّامِ لتخبرهُ بنصرِه على عبدِ الله بنِ الزبير إلاَّ رأسَ عبدِ الله ابنِ الزبير نفسِه وصَلَب الجثةَ المقطوعةَ الرأسِ ... وتحتَ هذه

الجثةِ المصلوبةِ على خشبتين فى العَراء التَقى الحجّاجُ بأسماء فقال لها :

— يا ابنة أبى بكر لا شىء علىَّ فأنا قاتلُ الملحدين

— بل قاتلُ المؤمنين الموحّدين

— لقد كانَ يَبغى الدنيا فأفسدتُ عليه دنياه

— وهو قد أفسدَ عليكَ آخرتَك .

✡ ✡ ✡

وما أن وصلتْ رأسُ الشهيدِ إلى عبدِ الملك بنِ مروان حتى كَتب إلى الحجاجِ يلومُه على هذا الصَلْب وذلكَ التشويهِ وأمرَ بأن تُسلّم الجثةُ إلى أسماءَ التى غسّلتْها وكفّنتْها وصلّت عليها ودفنتْها فى الحجون جبل بأعلى مكة وختمتْ أسماءُ صفحةَ جهادِها بهذا الشهيدِ الذى قدمتْه فداءً للحقِّ وللاعتزازِ بالرأى ... فرضى اللهُ عنها ، وهيّأ لنساءِ المسلمين حُسنَ الاقتداءِ بها .

— ٢ —

نسيبة

أول فدائية إسلامية

« ما التفتّ يميناً ولا شمالا يوم أحد
إلا رأيت نسيبة تقاتل دوني »
حديث شريف

محمود بن الشريف

obeikandl.com

آياتٌ تُتْلَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِجوارِ خَيْمَةٍ مِنْ خِيامِ بَنِي الْخَزْرَجِ فِي يَثْرِبَ . وَمِنْ دَاخِلِ هَذَا الْخِبَاءِ ارْتَفَعَ صَوْتُ نَسِيبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ الْخَزْرَجِيَّةِ تَقُولُ لِزَوْجِهَا زَيْدٍ ولِوَلَدَيْهَا ، حَبِيبٍ وعَبْدِ اللهِ :

نَسِيبَةُ : أَسَمِعْتُمْ هذه الآياتِ البَيِّنَاتِ التي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ، لِيَهْدِيَ بِهَا قَوْمَهُ ، وَيُخْرِجَهُمْ مِنْ ظَلامِ الجَهْلِ وَالشِّرْكِ إِلَى نُورِ الإِيمانِ والحق ؟ ما أَظْلَمَهُمْ إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِهذا الحقِّ الواضحِ وذلِكَ البَيانِ الجميل ! !

زَيْدٌ : مِنَ العَجِيبِ أَنْ يَكُونَ القُرَشِيُّونَ ، وَهُمْ قَوْمُهُ ، أَوَّلَ مَنْ يُكَذِّبُونَهُ فِي دَعْوَتِهِ ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِ ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى اضْطِهَادِهِ وإِيلامِهِ ، وَيَتَّهِمُونَهُ مَرَّةً بِالجُنُونِ ومَرَّةً يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَرِيضٌ . .

وَالأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ ظَلَّ يَتَحَمَّلُ أَذَاهُمْ صَابِرًا عَشْرَ سِنِينَ وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ تَرَكُوا مَكَّةَ وَهَاجَرُوا إِلَيْنَا

كثيراً من ألوان العذاب والأذى الذي وجهته قريش إليه وإلى صحابته وعلمت منهم أنه ما ضعف وما لان ولا رجع عن هداية القوم ، بل إنه ينتهز فرصة موسم الحج كل عام ليقابل فيه الحجاج ويعرض عليهم دعوته ويسمعهم قرآن ربه وتعاليم إلهه .

نسيبة : كم بقي على موعد رحيل القافلة للحج ؟

زيد : شهران . ولماذا ؟

نسيبة : لأني في شوق بالغ لرؤية محمد ولقائه وسماع حديثه ، والاستزادة من القرآن وهديه .

وما أن جاءت أيام الحج حتى كانت القافلة تسير من يثرب إلى مكة وفيها خمسمائة حاج منهم نسيبة وزوجها وولداها . .

ووصلت القافلة إلى مكة وقد بدأ الليل ينجلي ويظهر الفجر وتتكشف خيوطه المنيرة المضيئة

وَمَا أَنْ أَقْبَلَتْ اللَّيْلَةُ التَّالِيَةُ حَتَّى كَانَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ثَلاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ وَمَعَهُمْ امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ هُمَا : نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ .

وَكَانُوا جَمِيعاً عِنْدَ الْجَانِبِ الأَيْمَنِ بِأَسْفَلِ جَبَلِ الْعَقَبَةِ يَسْمَعُونَ رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ وَيَخُوفُ مِنَ الشِّرْكِ وَيُرَغِّبُ فِي الإِسْلامِ وَيَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ الإِلَهِ الْوَاحِدِ . وَتَقَبَّلَتْ قُلُوبُ الْقَوْمِ وَعْظَ الرَّسُولِ وَإِرْشَادَهُ فَآمَنُوا جَمِيعاً وَعَاهَدُوا الرَّسُولَ عَلَى أَنْ يُحَارِبُوا مَنْ يُحَارِبُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُسَالِمُوا مَنْ يُسَالِمُهُمَا ، وَيُعَاوِنُوهُ إِذَا مَا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَيَنْشُرُوا دَعْوَتَهُ إِذَا مَا رَجَعُوا إِلَى بَلَدِهِمْ يَثْرِبَ ...

وَعَادَتْ نَسِيبَةُ وَأُسْرَتُهَا الْمُؤْمِنَةُ إِلَى يَثْرِبَ سَعِيدَةً بِإِيمَانِهَا فَخُورَةً بِعَهْدِهَا مُقْدِمَةً لِلْجِلادِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ نَفْسَهَا وَوَلَدَيْهَا حَبِيباً وَعَبْدَ اللهِ ... وَظَلُّوا يَدْعُونَ لِلإِسْلامِ فِي يَثْرِبَ حَتَّى لَمْ

يَبْقَ فِيها دَارٌ إِلَّا وكَانَ فيها ذِكْرٌ لِلهِ أَوْ آياتٌ تتلى مِنْ كِتابِهِ الْكَرِيم.

☆ ☆ ☆

وهَاجَرَ الرَّسولُ مِن مَكَّةَ إِلَى يَثْرِبَ .. وَحَزَّتْ هِجْرَتُه فِي نفُوسِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَعَزَّ عليهم أَنْ تَبُورَ خِطَّتُهُمْ وَتَحْبَطَ مُؤامَرَاتُهُمْ ، فَقَدْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ تَظَلَّ دَعْوَتُه محصورة بين شِعابِ مَكَّةَ حَتَّى يَتَمَكَّنُوا مِنَ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا ... وطَارَ صَوَابُ الْقَبِيلَةِ وَجَعَلَتْ لِمَنْ يَعْتَقِلُ مُحمداً أَوْ يَرْجِعَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ وَيَرُدَّهُ إِلَيْهِمْ حَيًّا أَوْ مَيِّتاً مَائَةَ ناقة.

وَحَرَّمَتْ نِسَاءُ قُرَيْشٍ عَلَى نَفْسِهَا الطِّيبَ وَالدُّهْنَ حَتَّى يَثْأَرَ أَزْوَاجُهُنَّ مِنْ محمد وصَحَابته ...

وظَلَّ محمدٌ سَائِراً هو ورَفِيقُه أبو بكر أَيَّاماً سَبْعَةً لَقِيَا خِلَالَهَا مَا أَجْهَدَهُمَا مِنْ حَرِّ الهجير وقِلَّةِ الزَّادِ وَمَشَقَّةِ الطَّرِيقِ المجهولِ الَّذِي يَسِيرَان فيه لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

ووصل الرسولَ وصديقه إلى يثرب . . وأقبلَ عليهما مُسلِمُوها يحاولون أن يروا وأن يقتربوا من هذا الرسول الذى يذكرونه كلَّ يوم مرّاتٍ عديدة فى أثناء صلاتهم . . وفى وسط الجموع التى أحاطت بالرسول المُهاجر المُفارق لأهله ووطنه وقفت امرأة فارعة الطول يشعُّ من عينيها بريق العزم والإيمان والمضاء وقفت لتستقبلَ مُرحِّبةً صاحبَ الرسالة التى آمنت بها أعمقَ إيمان ، ولم تكن هذه المرأة المؤمنة إلّا نسيبةَ أمّ حبيب الخزرجيةَ أولى نساء يثربَ المجاهداتِ . . جاهدت أيّامَ السلام بين رُبوعِ يثربَ فقدّمت الطعامَ والعونَ للمهاجرين الأوائل الذين سبقوا رسولَ الله إلى يثربَ تاركين أموالهم وأهلهم متجرّدين من كلّ شىء إلّا من عقيدتهم القويّة وإيمانهم المتين المكين ، وجاهدت أيام الحرب تُمرّضُ المريض وتُداوى الجريح وتُقدّم — ومعركةُ أُحُدٍ دائرةُ الرحى — الماءَ تدور به على المسلمين من قِربةٍ تحملها فوق ظهرها . . وظلّت فى عملها

الإنسانى النبيل لا تكل ولا تمل . . وتشاهدت بعينيها فى بدء هذه الغزوة انتصار المسلمين الذين كانوا لا يزيدون عن سبعمائة مقاتل يقاتلون ثلاثة آلاف مشرك . فهللت وكبرت وشاركتهم حماستهم وفرحهم بهذا الظفر الذى أحرزوه . . وتمزقت قوى قريش وفرت جموعهم أمام هجمات محمد وأصحابه . . وغنم المسلمون ما خلفه المشركون وراءهم ، وانشغلوا بهذه الغنائم عن اتمام رسالتهم وتنظيف ميدان القتال من كل أثر للأعداء . . وترك الرماة أماكنهم التى أمرهم النبى أن يتحصنوا بها فوق الجبل ليحموا ظهر المسلمين ، ولا يتركوها مهما كانت الظروف . . وأسرع هؤلاء الرماة ليأخذوا نصيبهم من مخلفات الكفار .

وانتهز هذه الفرصة خالد بن الوليد — الذى كان قائد المشركين فى هذه المعركة — فدار برجاله وراء جيش المسلمين واحتل مكان الرماة وصاح صيحة النصر . فأسرعت إليه جماعات كثيرة من فلول جيشه المنهزم وأقبل إليه رجاله وجنده

تَهْوِي سُيُوفُهم ورِمَاحُهم على مَن يُلاقُونَه مِن المسلمين التي دَارَتْ الدائرةُ عليهم .

وألْقَى كُلُّ مسلمٍ مَا كانَ بِيدِه مِمَّا انتَهَبَه وعَادَ إلى سَيْفِه يَسْتَلُّه لِيُقَاتِلَ به ... وانكشَفَ المسلمونَ ... وجُرِحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شَفَتِه وسَالَ الدَّمُ مِن جُرْحٍ فى رأسِه وشَاهَدتْ نَسيبَةُ وهى تُسعِفُ المجرُوحِين وتَسقِى مِنهُم مَن يَطْلُب الماءَ شَاهَدتْ جُموعَ المشركينَ تَتَّجِهُ نحوَ الرسولِ تُريدُ قَتْلَه فَأَلْقَتْ الآنيةَ التى كانتْ تَحْمِلُها بِيُمناها ورَمَتْ الأَرْبِطَةَ التى أعدَّتها لِربطِ الجُروحِ والتقطَتْ سَيفاً وأخذَتْ تُحارِبُ به الأَعداءَ وتُبعِدُ المشركينَ عَن محمدٍ وتَحُولُ بَيْنَهم وبَيْنَه . ولاقَتْ كثيراً مِن الطَعَنَاتِ وكلَّما كُسِرَ سَيْفُها استبدلَتْه بِآخَرَ ... وجَعَلَتْ جَسَدَها الفارِعَ الطويلَ سَدًّا حَائِلاً بَيْن رسول الله وأعْداءِ الله حَتى لا يَصِلُوا إليه ولا يَنالَهُ أَذَى أَوْ مَكرُوه ... وظَلَّتْ تُدَافِعُ وتُنَافِحُ حَتَّى جُرِحَتْ جرْحاً بَلِيغاً فخارَتْ

قُوَاها وضَعُفَتْ مُقَاوَمَتُها بِسبَبِ ما نَزَفَ مِن جُرحِها مِن دِماء ...
وارتَمَتْ عَلى الأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْها .

وثَبَتَ الرسولُ وظَلَّ يُقَاوِمُ مَعَ نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنْ أَصْحَابِه ثَبَتُوا بِجِوارِه واستبسَلوا فى الدِّفَاعِ عَنْه حَتَّى ابتَعَدَ المشركونَ عنه مَهزُومِينَ فارِّين ... ولمَّا تَوَقَّفَ القِتالُ بَحَثَ المسلِمونَ عَن نَسِيبَةَ فوجَدُوها مُلْقَاةً يَنْزِفُ دَمُها مِن جُرْحٍ عَمِيقٍ بكَتِفِها فنظَّفُوا الجُرْحَ وسَقَوْها الماءَ حتى تَذَهَبْ ... ولمَّا أَفَاقَتْ أَمْسَكَتْ بِسَعْدِ بنِ أَبى وقّاصٍ تسأَلُه بِصَوْتٍ هَامِسٍ مُتَلَهِّف .

— مَاذا صَنَعَ المشركونَ بِالنبى ؟

وَلَمَّا طَمْأَنَها قائلا : لَقَدْ نَجَى وَهُو قَرِيبٌ مِنْك .

ابتَسَمَتْ وقَالَتْ : فَدَيْتُهُ بِأَبِى وَأُمِّى .

* * *

وَلَمْ يَصْرِفْها جِهادُها فى سَبِيلِ نَشْرِ دِينِ اللهِ عَنْ تَرْبِيَةِ وَلَدَيْهَا حَبِيبٍ وعَبدِ اللهِ تربية دينية قويمة ؛ فملأَتْ قَلْبَيْهِما إيماناً

وصدرهما شجاعة وسواعدهما قوة . وأرسلت أصغرهما عبد الله إلى بلاد اليمن مع معاذ بن جبل ليعلم اليمنيين رسالة السماء ويفقههم في الدين . وبعثت حبيباً ولدها الأكبر الذى اشتهر بقوة الحجة وبلاغة المنطق وفصاحة اللسان إلى بنى حنيفة باليمامة ، ليناقش مسيلمة الحنفى الكذاب الذى ادعى أنه رسول كمحمد لعله يقنعه فيرجع عن ادعائه وزعمه .

وكان مسيلمة فى بادىء الأمر قد قدم مع قومه بنى حنيفة إلى النبى وأسلم وآمن بمحمد . ولما شاع مرض النبى عليه السلام ادعى مسيلمة النبوة وزعم أنه رسول مثل محمد واتبعه كثير من بنى حنيفة حتى قوى أمره وأرسل للنبى محمد رسالة يقول فيها « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك وبعد فإن الله قد جعلنى شريكا لك فى أمر الرسالة ، فلى أنا وبنو حنيفة نصف الأرض ولك ولقريش النصف الآخر » فكتب إليه النبى يقول : « باسم الله الرحمن الرحيم : من محمد

رَسُولِ اللهِ إِلَى مُسَيلمةَ الكَذَّابِ . سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهدى .
أَمَّا بَعْـــدُ فَإِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
والعاقِبةُ للمتقين .

☆ ☆ ☆

وتُوُفِّيَ الرَّسُولُ مُحمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وَلَمْ تَخْمِدْ هَذِهِ الْفِتْنَةُ التى أَشعلها مُسَيْلَمَةُ بَلْ قَوِيَتْ وَزَادَتْ اشتعالاً ، وبَلَغَ أَنْصَارُهُ وأَشياعُهُ فى عهد أبى بكرٍ آلافَ الأَتْبَاعِ والْأَشياعِ يُنَاصِرُونَه ويأْتمِرُونَ بِأَمْرِهِ ويعْتَرِفُونَ لَه بالرِّسالةِ وَيُلاقُونَ الموتَ فى سَبِيله ، وَكَانَ الْمُتَعَصِّبُونَ له منهم يَقُولُونَ : نَشْهَدُ أَنَّ محمداً صادقٌ وَمُسَيْلَمَةُ كَذَّابٌ ، وَلَكِنَّ كَذَّابَ رَبِيعَةَ أَحَبُّ إِلَيْنا من صادِقِ مُضر .

☆ ☆ ☆

ووصَلَ حَبِيبٌ إِلَى الْيَمَامَةِ والْتَقَى بمسَيْلَمَةَ وقَالَ لهُ :

— أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وارجِعْ عن زَعْمِكَ الْبَاطِلِ وَدَعْوَاكَ

الكاذبة إنك تزعم أنك تؤمن بالقرآن والقرآن يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

فيسأله مسيلمة :

— أتشهد أن محمداً رسول الله ؟

— نعم .

— أتشهد أني رسول الله ؟

فيجيبه حبيب في قوة وثبات وإيمان : لا ! !

وفي كل مرة لا يعترف فيها حبيب لمسيلمة بالرسالة يقطع مسيلمة عضواً من جسد حبيب . وظل يفعل ذلك حتى جاد حبيب بأنفاسه الأخيرة شهيداً في سبيل الحق والله هو الحق المبين .

☆ ☆ ☆

وعلمت السيدة نسيبة بمصرع ولدها حبيب فلم تبك ولم تجزع وهي التي وهبت نفسها للتضحية والفداء والفناء لنشر

رسالةِ الإسلامِ ، وقابلت نبأ قتلِه كما تقابل المؤمنةُ الصابرةُ المستسلمةُ لقضاءِ الله أحداثَ الدهرِ وأرزاءَه ، وصممت على أن تأخذ ثأرَه بيدِها .. فخرجت هي وولدُها عبدُ الله في جيشِ خالدِ بنِ الوليدِ الذي سيّرَه أبو بكرٍ لقتالِ مُسيلمةَ ... وكان قتالاً مريراً اختلطت فيه رمالُ الصحراءِ بدماءِ المحاربين واستبسلَ بنو حنيفةَ قومُ مسيلمةَ في هجومِهم فردّوا المسلمينَ عن مواقعِهم وكبّدوا جيشَ خالدٍ خسائرَ جسيمةً في الأرواحِ والعتادِ . واستعصى أمرُ مسيلمةَ وأحاطَ جندُه بجندِ المسلمين وكادوا يفتكونَ بهم ويطفئونَ نورَ اللهِ ويقضونَ على الدعوةِ المحمدية .. لولا أن تقدمت نسيبةُ تقتحمُ الصفوفَ وتفتحُ الثغراتِ ، واستمدَّ المسلمون من شجاعتِها قوةً وتابعوها في التقدمِ والزحفِ .

وكادَ الإعياءُ ينالُ منها من كثرةِ ما بذلت من جهدٍ لولا أن رأت مسيلمةَ قريباً منها ، وعندئذٍ طافت برأسِها ذكرى

وَلَدِهَا الحبيبِ الذِى استشهدَ عَلَى يَدِ هَذَا الطَّاغيةِ ، وَخَيَّلَتْ وَلِيدَهَا وَهُو يُشِيرُ إِلَى زَعِيمِ الْمُرْتَدِّينَ وَيَقُولُ لها : هَذَا عَدُوُّ اللهِ اسْرِعِى بِقَتْلِهِ تَشْفِى غَيْظَ قَلْبِكِ وَتَنَالِى رِضَا رَبِّكِ وَتُرِيحِى الدُّنْيا مِنْ شُرورِهِ وَأَكَاذِيبِهِ ، اقْتُلِيهِ تَقْتُلِى الْفِتْنَةَ وَتَثْأَرِى لِوَلَدِكِ .

وَجعَلَتْها ذِكْرَى وَلِيدِهَا أَقْوى قُوَّةً وَأَحالَتْ إِعْيَاءَهَا تَجَلُّدًا وَإِجهادَهَا عَزْماً وَمَضاءً ... وَمِنْ خِلَالِ غُبَارِ الْمَعْرَكَةِ الْمُنْتَشِرْ وَأَشْلَاءِ الْقَتْلَى الْمُتَنَاثِرَةِ وَصَلِيلِ السُّيوفِ الْمُدَوِّى ارْتَفَعَ سَيفٌ مِنْ وَرَاءِ مُسيلَةَ لِيُطِيحَ بِرَأْسِهِ وَلَكِنَّهُ اسْتَدَارَ إِلَى الخلْفِ وَعَاجَلَ الْيَدُ التى تَحْمِلُه بِضَرْبَةٍ أَطَارَتْ السَّيْفَ وَقَطَعَتْ الْيَدَ وَلَمْ تَكُن هَذِهِ الْيَدُ إِلَّا يَدَ السَّيِّدَةِ نَسِيبَةَ التى تَحَدَّثَ الرَّسُولُ عَنْ جِهادِهَا فَقَالَ « مَا الْتَفَتُّ يَميناً وَلَا شِمَالا يومَ أُحُدٍ إِلَّا رَأَيتُها تُقَاتِلُ دُونِى » .

وَرَأَى عبد الله اصابَةَ أُمِّهِ وَأَهَاجَ مَنْظَرُ الدِّمَاءِ وهى تَقْطُرُ

مِن يَدٍ أَحب النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَبَرَّهُمْ بِهِ شُعُورَ الغَضَبِ فِى قَلْبِهِ وثار جُرْحُه القديمُ على أَخِيهِ . وَأَعَدَّهُ القَدَرُ لِيَقْتَصَّ لِأُمِّه ويأخذَ بِثأر أَخِيه فَتَقَدَّمَ ومَعَهُ سيفُه يَهوِى به فِى جبروتٍ وعُنْفٍ حتَّى وَصَل إِلَى مُسَيْلَمَةَ فالتحم معه فِى مُبارَزَةٍ مَرِيرَة خَتَمها عبدُ الله بِطَعْنَةٍ قاتلةٍ أَصابتْ مُسَيْلمةَ فَقَضَتْ عليه .

وماتَتْ الْفِتنةُ بِموْتِ مُسَيلمةَ وَارْتَدَّتْ إِلَى الْإِسْلام هَيْبَتُهُ بِالقضاءِ على المرتدِّين . . . وَرَجَع خالدُ بنُ الْوَلِيد وعلى رأسِهِ إِكْلِيلُ النَّصْرِ وعادتْ نسيبةُ إِلَى المدينة بِيد وَاحِدَةٍ وولد واحد .

ولم يَعرِفْ أَحدٌ كَيف أَنْفَقَتْ هَذِه الصَّحَابِيةُ الجليلةُ بَقِيةَ حَيَاتِها بَعد ذلك ؛ إِذْ الْتزمَ التاريخُ الصمتَ فلمْ يُحدِّثنا عَنْ أُخْرَيَاتِ أَيامِ حياتِها واكتفى بِعَرْض هذِه الجوانبِ المشرِقةِ مِنْ سيرتِها التى أَهَّلتها لأن تحتل المكانَ الأولَ فِى مَوْكِبِ المؤمناتِ الخالداتِ .